في الخطاب الأمازيغي

(وجهـــة نظـــر نقدية)

محمد الولي

- **أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل (الشنفرى)**
- **في حضرة الجياع يخجلني رغيفي (توفيق زياد)**
- **إن المطلب الهوياتي ليس أمراً بديهياً. فقد يكون، رغم عدالته، قاتلاً. (عبد الله بونفور)**

الأمازيغية هي إحدى اللغات السامية الحامية، كما تعتبر الركيزة الأساسية للهوية الأمازيغية في المغـــرب والجزائـــر خاصة، و تتمتع بوجود محدود في تونس وليبيا ومصر وموريطانيا والسنيغال ومالي ونـــيجيريا ...إلأن المنافحين عن هذه اللغة من الأمازيغ، قلما أشاروا إلى أن الهيمنة الحقيقية (العلمية والتقنية والإدارية) في شمال إفريقيا هي للفرنسية فهي في المغرب لغة العلوم والطب والصيدلة والهندسة والإعلامـــيات ومدارس التدبير الإداري. وهي اللغة المعتمدة في جزء هام من شُعَبِ كليات الحقوق في المغـــرب إضافة إلى وجود حوالي أربعة عشر شعبة للغة الفرنسية في كل كليات الآداب بالمغرب وهي لغة الجزء الأكبر من الإدارة العمومية ولغة "الجريدة الرسمية"المغربية إلى جانب العربية. والفرنسية هي لغة نصف التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي. بل إن الإعلام التلفزي والصحافة اليومية والراديو تحـــتل فـــيه الفرنسية المواقع الرفيعة وأحيانا الأرفع . وهي اللغة التي يعتمدها كثير من أدباء المغرب في الشـــعر والرواية والنقد . وتعرف هذه الممارسة الكتابية بالأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية . وهي لغـــة الارتقـــاء الإداري في الدولة المغربية . بل اللافت أن القوميين العرب والإسلاميين على اختلاف مذاهـــبهم والأمازيغـــيين بمختلف نحلهم متفقون حول هذا الأمر : الفرنسية أولا! وفي بعض الأحيان الإنجليزية! أولا أو ثانيا! بعد ذلك تأتي العربية لأجل التواصل مع العامة!

وعلى كل حال فإذا كانت العربية تتمتع بمكانة أحط من مكانة اللغة الفرنسية فإنها تحتل مكانة أرفـــع من مكانة اللغة الأمازيغية . ولا مجال لمقارنة وضع الفرنسية مع الأمازيغية، وهي اللغة التي تتأهب

اليوم لدخول عصر الكتا بة والتدوين وتبني استعمال حرفها الخاص المدعو تِيفِينَا غْ (الأصل التسمية هي تَفِينِيقْتْ، أي الفينيقية). المكانة التي تحتلها العربية أرقى من مكانة الأمازيغية، وذلك لكونها لغة القرآن والطقـــوس الدينية، وهي اللغة الرسمية للوطن بحكم القانون . وهي فوق هذا وذاك لغة التدريس في مجال الإنســـانيات وكلـــيات الشـــريعة وهي لغة القضاء والكتابة المنتشرة وسط الشعب والأدب والشعر والصحافة والتلفزيون ... إلخ. وهي اللغة التي يخاطب بها الملك الشعب.

في هذا الوضع الذي تبدو فيه العربية والأمازيغية مظلومتين بنسب متفاوتة مقارنة بالفرنسية، فـــإن أغلـــب خطاب الحركات الأمازيغية يسدد ضرباته الظالمة للعربية لا للفرنسية التي تهيمن في غير موطنها، ووجودها في المغرب له وجه استعماري رغم أهميته العلمية.

ومع هذا فإن وضع الأمازيغيةصعب للغاية بسبب هذا الحرف الجديد على الشعب . إلا أن من عوامل الإحباط هو أن موقف مؤسسات التدريس والبحث قد قررت أن تضع حدّ اً للتعدد "اللهجي". وهو التعدد الذي يجعل متحدثا منجنوب المغرب في سوس والآخر من الشمال في الريف لايتفاهمان إلا بنسب ضعيفة جداً.

ولاشـــك في أن أصل أو جذر هذه "اللهجات" واحد وهو "الحاميه السامية" دعك من الأصول المختلقة الاستعمارية الباسكية أو السِّلْتِيّة. يستند هذا الجذر العريق إلى مقومات لسانية مشتركة صرفية وأو معجمـــية . إلا أن العـــزلة الـــتي عمرت قرونا جعل كل فرع يشق طريقه باستقلال عن الفروع الأخرى حتى وصل إلى درجة التميز شبه التام. يقول ليونيل كالان Lionel Galand :

تـــرتبط لهجـــات السكان البالغة الاختلاف فيما بينها بسمات لغوية مشتركة تؤَ مِّن وحدة الأمازيغـــية. إلا أنواقعها يوفر فيضاً من اللهجات المحلية، تصل إلى أربعة أو خمسة ألاف لهجة حسب أنْدْرِي بَاسِيه André Basset. لكل قبيلة ولكل قرية لهجتها؛ إلا أن تجمعات أكبر يتمتع أفرادها بإحساس أنهم يتقاسمون نفس اللهجة :من قبيل هؤلاء الطوا رق والشُّلوحْاو الْقْبايْلِيِّين. إننا بالإنتقال من مجموعة إلى أخرى، يكون التفاهم ضعيفاً أو منعدماً تماماً"(1).

إلا أن هـــذا التوحيد المستهدف اليوم يعتمد على الإرادة والتدخل التقني أي التدخل الإرادوي الـــذي ينجـــزه الباحـــثون اللغويـــون المتمتعون بتزكية ما. وهذا بدوره يستجيب لضغط الجمعيات الأمازيغـــيةالأمازيغـــية اليوم واحدة بغض النظر عن تفاهم الرِّ يفِيّ والشَّلْحِي. ناهيك عن تفاهم أهل الريف وأهل سِيوَة في غرب مصر. يقول أحد أقطاب الجمعيات الأمازيغية السيد إبراهيم أخياط :

"الوطن بالنسبة إلينا يبتدئ من سِيوَة بمصر، حتى جزر الكناري، أي إن حدود الأرض والوطن الأمازيغـــي تمـــتد من سيوة إلى جزر الكناري إلى مالي هي أيضا ووطننا وشعبنا هو الشعب الأمازيغي ساكنة هذا الوطن الذي تعَ رَّف واحْتَلَّتْه عدة ثقافات أثرت فيه وأثر فيـ ها ولكن في النهاية هو شعب له خصوصـــيته وهويـــته لـــذلك فنحن بالطبيعة سنواجه كل التوجهات الراغبة في سلب هذه الهوية أو احتوائها أو إقصائنا كثقافة كهوية كحضارة"(2).

إذن الأمازيغية تمتد من سيوة إلى جزر الكناري . ولم يتساءل السيد إبراهيم أخياط عن حجم الأمازيـــغ في جـــزر الكناري أي عن عدد المتكلمين بها الحقيقة أن لا أحد يتكلم بها حقا . إن لغتهم، حالـــيا، هي الإسبانية. على أن الأهم هو أن هذا الخطاب يتناول موضوع الامازيغية والأمازيغ وكأنهم وحـــدهم أغلبـــية السكان ولا حديث عن المكون العربي إلى جانبهم ، بل الأغرب هو أن يكون وطن أمازيـــغ المغرب يمتد ،في تصريح أ خياط، من شاطئ الأطلسي إلى سِيوَة غرب مصر. وما قوله في عرب المغرب إلى اين امتدادهم؟ الواقع أن مقتضى هذا الخطاب ألا وجود للعرب في المغرب.

ويقـــول أحد المتشددين الغلاة : "كل المغاربة أمازيغ "(3). الواقع أننا هنا بصدد تسييس مريض لمسألة الأمازيغية، وخلط للأوراق بين مجالي السياسة والبحث العلمي . وربما كان أحد الباحثين النبيهين في الأمازيغيات أحسن من يتناول بالنقد العلمي لمثل هذه التصورات المتطرفة, يقول عبد الله بونفور:

يـــبدو لي، باعتـــباري جامعـــياً، أنه ينبغي الاحتفاظ بمسافة ما ضرورية بين الإدا رة السياسية والـــبحث العلمي .إننا بصدد منطقين : السياسة تدبيرية، التدبير طبيعتها؛ والعلم هو البحث عن الحقيقة بغض النظر عن آثاره. إن المسافة بينهما تحمي في نفس الآن السياسة والعلم"(4).

ولا إشارة فلا وجود لإحصائيات دقيقة لعدد السكان بالأرقام .هذه التقديرات التي يقذف بها هـــؤلاء المتشـــددون هي انثيال انفعالي يتخطى الحدود الأخلاقية، وهو يتعمد إدارة الظهر أمام التأمل العلمـــي والأخلاقي. هؤلاء لا يمكنهم أن يعيشوا مادياً ومعنوياً إلا في خضم هذه السديمية . وتقديراتهم لســـكان المغرب هي مجرد تقديرات طوباوية ناتجة عن استغلال غير أخلاقي لحالة إنسانية. يقول لْيونِيلْ كَالَانْ L. Galland :

"لم يدقـــأي إحصـــاء حـــديث عدد الأ شخاص الذين يتحدثون الأمازيغية باعتبارها اللغة الأولى، إلا أننا نستطيع التسليم بـ أنهم يتجاوزون اثني عشر مليوناً ، منهم سبعة أو ثمانية ملايين يوجدون في المغـــرب، وحيث يمثل شلوح سُوسْ وساكنة المرتفعات الجبلية الوسيطة والريفيون، 40% أربعين في المئة من مجموع السكان"(5).

وعلـــى الـــرغم من أننا لا نعرف تاريخ كتابة هذه المقالة التي تقدر أمازيغ المغرب بحوالي ثمانية ملايين، فإننا نعتبرالتقدير أربعين في المئة قريبـ ـًمن العدد الذي يتردد على ألسنة الباحثين . ويقدر ذلك ح.هـــــ. بوسْـــكِي، G.H.Bousquet بـــ خمسة وأربعين في المئة من مجموع ساكنة الغرب : "لقد حافظ المغـــرب بشـــكل أفضل على الأمازيغية بالجزائر لقد قدر المتكلمون بالأمازيغية هنا بـ ـــ خمسة وأربعين بالمئة من مجموع الساكنة"(6).

ومـــرة أخرى فـ إن مايهمنا ليس العدد ، بل النسب المئوية التي تقدر عدد الأمازيغ في المغرب بما يقـــارب النصـــف . يقـــول أنْدْرِيه بَاسِيه André Basset : "إننا نقدر، في هذه الشروط، واعتماداً على اعتـــبارات عامة، المتحدثين بالأمازيغية في المغرب بحوالي ما يقرب من نصف الساكنة La petite moitié، أي حوالي ثلاثة ملايين نسمة"(7).

هكذا إذن، وبغض النظر عن الأرقام المقدرة لعدد السكان تبعا لفترات تاريخية متباينة، يمكن التســـليم، في انـــتظار إحصـــاء دقيق وثقة، بأن المتحدثين بالأمازيغية هم نصف ساكنة المغرب. تقول مجموعة الباحثين في مركز "التهيئة اللغوية" بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية : "إن مـــــا يقـــــارب الخمســـين في المئة من ساكنة المغرب تتكلم الأمازيغية (بُوكُوسْ 1995) ومن بين هؤلاء نجد ثلاثة أرباع يتكلمون لغتين، الأمازيغية والعربية المغربية (اليُوسِي 1989)" (8).

هـــذا التقدير الذي لا يختلف جوهريا عن ذلك الذي قدمه أنْدْرِيه بَاسِيه André Basset، هو الأقـــرب إلى الاحـــتمال،إلا أن الإحصاء الدقيق قد يعَ لنِّ إن قليلا أو كثيراً هذا التقدير . ونحن نغض البصـــر،في هذا السياق ، عن تأثيرالتلفزيون والراديو والمدرسة والهجرة نحو المدن التي يمكن أن تخفض هذه النسبة التي قدرها أنْدْرِيه بَاسِيه. حينما نستند إلى هذا، لا يمكن للمرء إلا أن يندهش أمام خطاب المناضلين الأمازيغيين حينما يتحدثون عن الهـ وية الأمازيغية للمغرب وكأنهم هم وحدهم الذين يعيشون في هـــذا البلد الأمين وكأن الأمازيغية هوية كل المغاربة .هذا الخطاب أدعوه كليانياً لتجاهل التـ عدد الهـــوياتي في المغـــرب تجـــاهلاً تاماً ولاعتباره العربية مجردَ كُسُورٍ قابلة للإهمال . فنتأمل قول أحدهم : "وأول مـــا ينبغـــي علـــى الســـلطة بالمغرب القيام به، حتى لا تبقى رهينة لابتزاز التيارات القومانية والإســـلاموية، هو الانسحاب مما يسمـ ى "الجامعة العربية"التي لا وجو د لها على مستوى الأثر والفعل والنتائج، والإعلان رسمياً ودستورياً على أن المغرب مملكة أمازيغية.

أما هؤلاء الذين يعطون الأسبقية لمشاكل الشرق على المشاكل الداخلية للوطن، فما عليهم، حـــتى يكونوا منطقيين مع أنفسهم إلا أن يرحلوا عن المغرب و يغادروا إلى الأبد وليستقروا بفلسطين أو

العـــراق أو أفغانستان، التي هي مواطنهم الروحية، مادام أن المغرب يستحيل أن يكون هو فلسطين أو العراق أو أفغانستان"(9) .

أقـــل ما يمكن أن يوصف به هذا الخطاب هو الإقصائية والتلويح بما لا تحمد عقباه ، المطالبة بإعلان المغرب مملكة أمازيغية. التنكر التام للانتماء المتعدد للمغرب:العروبة والأمازيغية والإسلام . هذا الخطـــاب شـــتم للجامعة العربية ونكاية بمآسي الشعب الفلسطيني، الذي يعتبر الأمازيغ الشرفاء قضيته قضـــيتهم هم أيضاً . هذاالخطاب مطبوع بالكليَّانيَّةالبئيسة التي ولى عهدها . وإلا ما الداعي لنشر مثل هذا الكاريكاتور في نفس العدد السابق الذكر؟

(10)

إن مـــن يقرأ الكلام السابق لا يمكن أن يصدق صاحبه وهو يتحدث في سياق آخر مع مجموعة مـــن مناضلي الحركة الأمازيغية الموقعين على" البيان الأمازيغي" Le manifeste berbére سنة 2000، وقد وقـــع البيان 229 شخصاً؛ وقد ورد فيه: "نحن الأمازيغ إخوان العرب حيثما قطنوا، بحكم انتمائنا إلى الأمـــة الإســـلامية، وبحكم الأواصر القوية التي تربطنا بهم، وبحكم التاريخ المشترك المطبوع بالتآزر في السراء والضراء، نقاسمهم آمالهم وآلامهم، ونناصرهم في كل قضية عادلة.

أمـــا مواطنونا المغاربة الذين يعتزون بعروبتهم، كما نعتز نحن بأمازيغيتنا، فنحن وإياهم ذات واحـــدة. لا ينبغـــي أن يفتخـــر منا ولا منهم بالنسب أحد، لأن الاعتداد بالأرومة دليل على الخمول وتحايل من أجل نيل الرفعة والجاه والمال دون جهد ولا عمل"(11).

فمن نصدق بعد هذا ياترى؟ ومتى كان المُوقِّع صادقاً في التوقيع الأول أم في الثاني ؟ ألم يكن توقيعه الثاني انجراراً مع تيار يعجز عن معاكسته، ويعرف مكاسبه المادية وحسن المآل.

وكـــثيراً ما سمعنا أن العربية مفروضة على الشعب المغرب الذي هو في جملته شعب أمازيغي ولا علاقـــة لـــه بالعربية والشرق . ولهذا فمن الضروري عند هؤلاء تعميم الأمازيغية وحدها على كل الشعب. " إن الصراع، في بلدنا، يدور بين ماهو معاش وبين ماهو يوتوبية ممأسسة. العربية ليست لغة أي أحد. وتعلُّمُها يمر عبر الإكراه المدرسي ووصفها الرسمي هو مجرد افتراض سياسي"(12) .

هكـــذا إذن يـــؤكد أغلـــب ا لمناضلين الأمازيغيين، صراحة أو تقية، أن الأمازيغية هي لغة كل الشـــعب، والعـــربية مفروضة على كل الشعب المغربي الذي هو بهذا الاعتبار أمازيغي كله. وفوق هذا وذاك فـــإن العـــربية عنصـــر أجنبي في جسد الشعب . إنها "مرض مزمن" يبعث ويُوَلِّدُ التعصب القوي العروبي والتطرف الإسلامي.

صـــحيح لأن مثل ذلك الكلام الانفعالي ليس له أي أثر علـ ـمي. ولكن ما تروجه الصحافة هو كـــلام مـــوجه إلى الـ عامة المستهدَفة بالتحريض والتعبئة ومثل هذا المرسلات الدعائية يمكن ، بتواترها وشـــيوعها، أن تعـــبث بالعامـــة وتقودها عبر المسارات العدمية وغير الإنسانية .ويؤكد نفس الفكرة صحافي آخر مشهور بمثل هذه التدخلات المحملة بالنعرة العرقية.

ولأ خطـــوة يفرضها هذا القطع مع الإرهاب الذي يـ أتينا من المشرق، هو الاعتراف الكامل والدســـتوري والشـــجاع بالهوية الأمازيغية للمغرب والإعلان رسميا أن المغرب مملكة أمازيغية، مع ما يـــرافق ذلـــك من رد الاعتبار للأمازيغية كلغة رسمية للدولة المغربية ووضع حد نهائي صريح ، وشجاع كـــذلك، للتعـــريب الذي دمر عقول أبنائنا وحولهم إلى قنابل موقوتة يفجرها الوهابيون عن بعد كلما أرادوا ذلك" (13).

العربية مرفوضة لتوهم احتلالها مكان الأمازيغية والإ سلام مرفوض في هنا التصور لأ نه منقول عبر اللغة العربية. وهكذا نسجل الخط من كل ما هو عربي وإسلامي.

هـــذا التصور للمجتمع المغربي وللدولة المغربية والمطالبة بالانفصال عن الشرق وبتطليق اللغة العربية والإسلام والجامعة العربية واستبدال اسم المغرب العربي بآخر غير عربي ؛ هل هو تصور مبرر من

ملقـــع الدفاع عن الهوية الأمازيغية . هل يليق بالأمازيغ، إعلان العداء للعربية وهي لغة "نصف" ساكنة المغرب؟ على من يراهن المناضلون الأمازيع لحماية الهوية الأمازيغية؟ لمن ستدرس الأمازيغية اليوم وغداً؟ أليس العرب في المغرب، في النهاية، هم حماة الأمازيغية كما كان الأمازيغ، وما يزالون، حماة العربية؟

والملاحظ أننا حينما نبتعد من مجالات تداول الخطاب النضالي ونقترب من المتكلمين من مواقع الكفـــاءة العلمية والسياسية والإدارية نواجه خطا باً معتدلا ورزيناً ومتسامحاً. وهذا ينطبق على كلام ذ. أحْمـــد بُوكُوسعْميد المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية . والباحث الحصيف حسن أوْ رِيدْ الناطق الرسمي باســـم القصـــر الملكي . والباحث المشدد على الطابع التعددي اللغوي والثقافي للمغرب الأستاذ محمد المدلاوي. يقول أحد بوكس في حوار صحفي:

ســـؤال مما"رأيكم في الهجومات العنيفة التي تصدر من الكثير من المناضلين الأمازيغيين، بمن فـــيهم بعض أعضاء المجلس الإداري للمعهد، ضد اللغة العربية والإسلام، حيث يعتبرون أنها (العربية والإسلام) قد استعمرا الأمازيغ في بلادهم؟

جـــواب لا يحـــق المبالغة في هذا الموضوع، ليس هناك تناحر بين الأمازيغية والإسلام والعر بية بتاتاً، فكلها مكونات أساسية تشكل هويتنا الوطنية، علينا أن ننظر إلى العلائق بين هذه المكونات نظرة مستقبلية مؤسسة على روح المواطنة والتسامح"(14).

ويقول جسن أورِيدْ : إنّ للمغرب لغتين وطنيتين ،لا ثالثة لهما، هما : العربية والأمازيغية، وإن مقتضى الوحدة يفرض أن تكون لبلدنا لغة رسمية واحدة، وأرى أنها اللغة العربية"(15).

والواقـــع أن هـــذا التصريح الأخير هيج المناضلين الأمازيغيين وأثار حفيظة حملة الإيديولوجية الشـــمولية أو الكليانية . وتوجهوا إليه عبر الصحافة باستفسار عن الجهة التي يمثلها خطابه. هل يتحدث معبراً عن رأي شخصي أم أنه يمرر رسالة لجس النبض.

ومـــن نفس المواقع الرافضة للاختزالية الإيديولوجية يذهب محمد المدلاوي :"إن التعددية اللغوية هي الأساس الثابت للمجتمع المغربي، والمجتمع المغربي الحديث ثمرة الأزمنة الحديثة يعمق هذه التعددية "(16).

ومـــن مظاهر هذه الانغلاقية في خطاب الإيديولوجيين الأمازيغيين تعصبهم لاستعمال الحرف اللاتـــيني في كـــتابة الأمازيغية . وقادهم هذا الهياج إلى شن حملات مسعورة على الحرف العربي الذي جـــردوه مـــن تسميته لكي يضعوا له تسمية "الحرف الآرَامِي"لكاية في العرب وإنكاراً لحقيقة كون الحـــرف العـــربي حرفاً نَبَطِيّاً،من حيث الترتيب التاريخي .وسهل عليهم هذا الـ فَورَان العاطفي المطالبة

بكـــتابة الأمازيغـــيةالحرف اللاتيني، الذي نعتوه بالحرف العالمي أو الكوني . وهذا افتراء، إذ الحرف اللاتيني حرف أوروبي مستعمل لتدوين نصوص غير لاتينية.

ولقـــد كـــان يـــوم 5 أكتوبر 2002 حاسماً في التبني النهائي لاستعمال الحرف اللاتيني خلال الاجتماع الوطني للجمعيات الأمازيغية وصدور "بيان مكناس"، الذي "دعا إلى وصف الحرف اللاتيني بالحـــرفالعالمـــي، ودعـــا إلى إدراجه في التعليم العمومي وتق عيده ومعيرته كحرف رسمي للتدريس والكـــتابة.. وحمَّل أعضاءَ المجلسِ الإداري للمعهد المسؤوليةَ التاريخيةَ في الدفاع عن "جميع الاختيارات الاستراتيجية المنبثقة عن الحركة الأمازيغية وتنظيمات المجتمع المدني المساندة لها"(17).

والملاحـــظ أن التـــبني المتشنج للحرف اللاتيني الذي سموه تارة "عالميا" وطوراً آخر "كونيا" وزعمـــوا أنـــه الحـــرف الـــ ـذي سيُدخل الأمازيغية إلى رحاب التداول العالمي السهل عبر الحاسوب والأنتـــرنيت وإلى الإ بـداع العلمي والابتكار التكنولوجي ؛ واغتنموا الفرصة هنا لكي يكيلوا الحرف العربي ما شاءوا من القدح والشتم.وغني عن البيان أن ما يقدِّ م لغةً مَا، ليس "الحرف"، بل ما يرصد لها مـــن إمكانـــيات ماديـــة ومجموعات البحث والمختبرات ومشاريع الابتكار والخلق التي تندرج ضمن مخططـــات عامة للدولة في كل المجالات، وهي المخططات التي يقصد من ورائها الدفع بالدولة والوطن عبر مسارات التقدم العلمي . وغني عن البيان أن هذا لا يتسنى إلا للدول ذات المشاريع الكبرى المؤهلة لمنافســـة الـــدول المتقدمة في مجالالابتكار العلمي وفي الأسواق العالمية بما تنتج من سلع قا درة على المنافســـة. يبدو لي أن الحرف اللاتيني، حتى لو سميناه عالميا !أو كونيا !، قادرٌ،لمجرد تسميته ، على اجتراح هذه المهام، وعلى التزال الميداني.

وعلـــى كل حال فإن التحزب العاطفي للغرب عبر الدعوة إلى الانـ فصال عن الشرق العربي والإســـلامي، دون أدنى المراعاة الأخلاقية لعواطف المواطنين المغاربة المتعاطفين مع من يشاركونهم اللغة والدين والتاريخ والتطلع إلى المستقبل، لهو عمل يستأنف مشروع الغزاة الفرنسيين الذي عملوا بكـ ـل ما أوتـــوا من قوة وذكاء، لفصل البربري ، أي الأمازيغيعن العرب حتى يتمكنـ وا من الاستفراد بكليهما ويتيســـر لهـــم سبل الهيمنة . إن "تشجيعهم"الأمازيغية لعمل مشبوه وكذلك اعتبار البربر أ و الأمازيغ ذوي علاقات بالباسك أو السِّلْتْ Les celtes. ولو كان الفرنسيون يعطفون حقا على اللغات المحلية أو الهامشية لوجهوا ذلك العطف وتلك العناية إلى لغاتهم المهمشة مثل الباسكية والكورسيكية والبروتو نية. ألا يمـــثل دفـــاعهم في المغرب على الأمازيغية وتكميم أفواه الباسك سلوكاً منحطاً وسافلاً من الناحية الأخلاقـــيةعلـــى أن المناضـــل الأمازيغـــي الذ ي يلطخ مطلباً شريفاً مثل إعادة الاعتبار للغة والهوية

الأمازيغـــية بالـــتعلق ببعض الأوهام الإيديولوجية الاستعمارية لمن شأنه عرقلة تسوية مثل هذه الملفات التسوية الحكيمة.

ولقـــد ســـبق لي أن نبهت على هذه المزالق الاستئصالية في مناسبة سابقة حيث أعلنت :"إنني كأمازيغي، أضع الانتساب إلى الإنسانية الفاضلة فوق كل اعتبار، أرى حق الأمازيغي يتلطخ في الغالب بـــدعاوى لا علاقة لها إطلاقاً بمطالب الأمازيغيين الشرفاء "(18)ولكن الأدهى هو تشو يه الوقائع من قبـــيل "اختلاق" أصول للأمازيغية غير "الحامية السامية"، والسعي إلى تطهير الأمازيغية من كل الملامح التي تذكر بهذه الأصول المشتركة مع العربية.

إن المعجـــم العربي الذي وجد له امتدادات في الأمازيغية ليس ناتجاً عن الآثار العربية المرافقة للفتوحات الإسلامية، التي يتوهمها المناضل الأمازيغي، بل إن تاريخ تلك التأثرات والتواشجات العائلية لأقـــدم ممـــا يتوهم. إن الأمازيغي حينما يتوهم أن هذه الآثار ناتجة عن الفتح الإسلامي، الذي يسميه غزواً، يعطي لنفسه المشروعية أمام مشايعيه لكي يَسُلَّ سيوف بتر كل الملامح اللغوية ذات الأرومة التي يراها عربية. والحال أن هذه التشايهات والتناظرات المعجمية واللغوية والصرفية، أي ما يعتبر من صميم البنـــية اللغوية أقدم وأعرق مما يرى المناضل الأمازيغي. فلنتأمل قوله بوسكي : G.H. Bousquet. : "لقد طـــرح الســـؤال منذ زمن، عما إذا كانت اللغة الأمازيغية الوحيدة الباقية من مجموعة من اللغات، التي تعرضـــت كلـــها للا نقراض، أم أنها تحتفظ بأواصر قرابة مع لغات أخرى معروفة، ميتة أو حية. لقد طرحت في الواجهة أنواع من الأفكار التي لا تحظى بالقبول (قرابتها مع اليونانية أو الباسكية أو اللغات القوقازية) والتي لا تتسم بأية أهمية غير غرابتها.

إن الأطروالأكثر جدية، التي تتمتع في نظر البعض باليقينية، والتي عو لجت منذ زمن بعيد، هـــي أن الأمازيغية قد تشكل فرعاً من اللغات الحامية ـــ السامية. وهناك حسب مناصري هذه النظرية تَقاسُـــم وحـــدة بنية عميقة، على المستوى النحوي والتركيبي، بين اللغات الحامية، أو السامية الأولية Protosémitique واللغات السامية).

ومن جهة أخرى فإن عدداً كبيراً جذور الكلمات مشتركة بين اللغتين . كذلك هو الحال بالنسبة إلى الطوارقية، والحال أنهااللغة الأقل تأثراً بالغزو اللغوي العربي، ولا يتعلق الأمر هنا بالاقتراض المـــتحقق في عصر متأخر، إذ إن الكثير من هذه الجذور تم استعمالها في نقائش تعود إلى أكثر من ثما نية قرون قبل الغزو العربي"(19).

هـــذه الأواصر العريقة لا ينبغي أن تترك لعبث أي كان . هذه ذاكرة لغوية عميقة وغائرة في التاريخ السحيق، ذاكرة مشتركة بين العربية والأمازيغية.

فلننصت إلىأصداء هذا الرنين . كلمات أمازيغية العمود الأول وفي المقابل الكلمة العربية أو شـــرحها وتأويلـــها المعجمـــي . وهـــذه الكلمات الأمازيغية، غير المتداولة في العامية العربية، ذات تقاطعات مدهشة مع العربية.

الكلمة الأمازيغية الريفية	المقابل العربي أو شرحها
أرْمَذْوَذْ	مِذْوَد.
أَمَنْسِ	ما يؤكل في المساء.
يَسَّنْسْ	أمضى الليل أو المساء.
أَمَشْلِ	ما يأكل في الغذاء.
إِضَوَّرْ	ربط البهيمة بحبل طويل في الدمنة.
ادَّمْنَثْ	دمنة.
تَوْثَمْتْ	أنثى.
تَوَّرْثْ	باب. ربما لأنها تواري.
تُسْوَرْتْ	غطاء، لأنه يواري.
يَوْضَ :	فعل سقط، أليس الترديفي حيز واطئ.
وَطُّ	السقوط. الوطء العربية أليست مرتبطة بملازمة المكان الواطيء
يَرَدَّفْ	تبعه. أردفه.
أَخَرِّقْ	الكذب. من الخرق.
يَسْمُقُّرْ	ينظر مليا. من المقلة
أَنَبْذُ	أول شهور التقويم الأمازيغي. أليس هو البداية.

الواقع أن هناك سجلا طويلا من هذا الجنس من الكلمات المتقاطعة مع أخوات لها في العربية . وهـــي تمثل هذا الإرث المشترك والذاكرة الجماعية التي تستطل بالأصول "السامية"(20). إن المحاولات المحمومة الآن لتطهير الأمازيغية الريفية من هذه الكلمات سيؤدي في الآجال المـ نظورة إلى طمس تاريخ هـــذه اللغة ووشائجها باللغات التي ترتبط بها في شجرة اللغات السامية . إن إبطال هذا التاريخ سيجعل من هذه اللغة كياناً لقيطاً عديم الأبوة التاريخية والأمومة المشتركة مع عديد من اللغات الحامية السامية.

وهذا المجال من الحقول التي يشتغل فيها المناضل الأمازيغي المصاب بالاختلال العاطفي فيمد يده للعبث بكيان اللغة الذي هو إرث لكل الناس بل الإنسانية .على طريق طرح إنساني . إذا كانت الأمازيغية قضية عادلة، فلماذا تلطيخها بشتم العروبة؟ ولماذا النكاية في الشعب الفلسطيني؟ ولماذا شد الرحال إلى الكيان الصهيوني وعرض الدخول معهم في تحالف لقاومة العرب : العدو المشترك؟ لقد قام أحد "مناضلي" الحركة الأمازيغية خطيباً في الكنيسيت الإسرائيلي قائلاً: "نحن وإياكم نواجه عدواً واحداً، هو العدو العربي المشترك "(21)فيالها من ردود فعل منحطة . هذه المناصرة للصهيونية نكاية في العرب والعربية هي أحط أسلوب للدفاع عن الهوية الأمازيغية.

وعبر أحد الإسلاميين عن هذا الموقف حينما قال : "هناك اليوم ترويج لخطاب أن العرب مستعمرون للمغرب، ولخطاب عدائي عنصري تجاه اللغة العربية، وأخشى أن يكون تبني دعوة الفصل بين الدين والسياسة المقصود منه إبعاد العربية بحكم أنها هي الوعاء الذي مر عبره الإسلام إلى المغرب والعكس صحيح . [...] إننا نلامس تصاعد خطاب عنصري الهدف منه إرباك الإجماع الوطني وخلق مشاكل عرقية داخل المغرب"(22).

الملاحظ في الخطاب الهوياتي الأمازيغي أن الجزء الأكبر من هذا الخطاب لا ينصب على الهوية حقاً، بل ينصرف إلى الحط من العرب والعروبة والإسلام وإلى تملق الغرب وفرنسا بالخصوص، بل والصهيونية. إنني كأمازيغي أجد لغتي الأمازيغية تتلطخ في كل لحظة عبر خلطها بهموم لا علاقة لها بالهوية.وهنا أعود مرة أخرى للاستشهاد بالباحث الرصين عبد الله بونفور : "هناك مبدأ عام لا ينبغي نسيانه أبداً وهو أن أية قضية عادلة يمكن أن تستخدم لأغراض مُنَفِّرَة"(23).

بل أجدني أتألم على كون الأمازيغ المعرضين لكل أنواع المعاناة : البطالة الأمية الفقر التهميش هدر الكرامة الإنسانية، لا يحظون من المناضلين الأمازيغيين بالعناية المستحقة.

هوامش

1- **Uurversalis**, p.1009 -

2- جريدة النهار العدد 69، 19، 03، 2004

3- Mohamed Boudhan, « Tmazight entre le culturel et le politique », in**,Amazighité, debat intelectuel,** ed, Centre Tarik ibn Zyad, Rabat, 2002, p . 11 -

4- عبد الله بونفور، في حوار مع موحا مخلص ، في الجريدة اليومية LE MATIN, 06 juin, 2004

5- Lionnel Galland, "les Berbéres" Universalis, p 1009. ــ

6- G.H. Bousquet, **Les Berbères**, PUF. 1967. (P.19)

7- André basset, **La langue Berbère**, ed International Africains Institute by the Oxfond University Press, London, New York, Toronto, 1952. (P.4)
8- Meflahat Ameur et alii, **Initiation à la langue Amazighe**, ed. Institut Royal de la Culture Amazighe (IRCAM), Rabat, 2004. (P.9)
9- ــ "لا لممارسة الابتزاز على المؤسسة الملكية باسم فلسطين" في جريدة تاويزة، العدد 78 أكتوبر 2003. (ص 11).
10- نشر هذا الكاريكاتور بجريدة تاويزا، العدد، 78 أكتوبر، 2003 ص. 13
11- بيان شان ضرورة الاعتراف الرسمي بأمازيغية المغرب، مارس 2000 .
12- موحا مخلص، "العربية الرسمية رمز لأيارتايد لغوي مقيتة" جريدة أكرار العدد 128، 2004 (ص.7*.
13- في جريدة، **تاويزا**، ع.85 ، ماي 2004. (ص.19).
14- "الأمازيغية والاسلام والعربية كلها مكونات أساسية في هويتنا الوطنية" (حوار) في جريدة **التجديد** ع.829، فاتح يناير 2004. (ص.5).
15-في جريدة **تاويزا**، ع. 85، ماي 2004 (ص.19).
16- Mohamed E MEDLAOUI, Le berbère et l'histoire du pluralisme au Magreb (Le cas du Maroc), in, Ahmed BOUKOUS, **PROLOGUES**, n 27/ 28 , 2003, p. 98
17- WWW.attajdid.ma
18- الدكتور محمد الولي، "الموضوعات الحجاجية الكبرى في المغرب" في مجلة **علامات**، العدد 19، مكناس، المغرب، 2003. ص. ص. 136ــ137
19- G.H. Bousquet, **Les Berbères**, PUF. 1967. pp.21-22 .-
20- يذهب أ. روسلير O Rössler إلى حد إدماج الأمازيغية ضمن الفرع السامي الذي تعتبر العربية جزءاً منه، ويبعدها عن موقعها الشائع بين المصرية القديمية والقبطية. نقلاً عن ليونيل كالان في "Les berbères" في الموسوعة Universalis
21- المقرئ الإدريسي أبو زيد في حوار صحفي، مجلة **الفرقان**، العدد 49، الدار البيضاء، 2003، ص. 49
22- حوار مع مصطفى المعتصم' الأمين العام لحزب البديل الحضاري، في جريدة **الصحيفة**، العدد 146، 23ــ29 يناير 2004. ص. 19
23- عبد الله بونفور، في حوار مع موحا مخلص، في الجريدة اليومية LE MATIN, 06 juin, 2004